التفسير العلمي لبعض القضايا الكونية

د . حاتم المهدي عساكر لقع

المقدمة :

إن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم في الدين والدنيا , ويخط للناس طريق الصلاح والإصلاح , وينظم لهم شؤون الحياة تنظيماً محكماً سديداً قويماً . وهو كثير الجوانب متعدد المقاصد , فهو على ما كتبه الكاتبون وألف فيه المؤلفون لا زالت معانيه تتجدد مع الأيام وعجائبه تنكشف لذوي الأفهام , والذي يريد أن يفهم القرآن فهماً صحيحاً لا بد أن يكون مزوداً بالمعارف اللازمة لفهمه وأن يكون حسن النية والمقصد منفتح المدارك حسن الغايات .

لقد حفل القرآن الكريم بأبحاث ودراسات عديدة حول إعجازه , وهذا الاعجاز له وجوه عديدة , منها البلاغي والبياني واللغوي , ومنها التاريخي والتشريعي و ....ومنها العلمي .

وهذا الأخير اهتم به جمع من العلماء ؛ في الماضي والحاضر شرعوا في تطبيق ذلك عملياً في تفاسيرهم , كل حسب عصره , ووضعوا قواعد و أسس يمكن من خلالها إضافة نوع متميز من التفسير ؛ وهو ما أطلق عليه : ((التفسير العلمي)) فأن هذا المصطلح من المصطلحات الحديثة في الأوساط العلمية , وهو يشير إلى تأويل بعض الآيات القرآنية أو تفسيرها بما يتفق وبعض النظريات العلمية أو الاكتشافات الحديثة .

وقد اجتهدت في تبسيط الموضوع , فقسمت بحثي إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مفهوم التفسير العلمي وتاريخه والفرق بينه وبين الاعجاز العلمي للقرآن

المطلب الأول : مفهوم التفسير العلمي

المطلب الثاني : الفرق بين التفسير العلمي والاعجاز العلمي

المطلب الثالث : تاريخه

المبحث الثاني : أهمية التفسير العلمي والحاجة إليه

المبحث الثالث : القضايا الكونية التي تركز حولها التفسير العلمي

المطلب الأول : أصل الكون

المطلب الثاني : شكل الأرض

المطلب الثالث : قضية الحياة على الكواكب الأخرى غير الأرض

أهمية البحث وأسباب اختيار الموضوع :

1. أن هذه الدراسة تستمد قيمتها من القرآن نفسه , فهي تدرس العلاقة بين القرآن الكريم والمكتشفات العلمية الحديثة .
2. يهتم البحث بالتفسير العلمي للقرآن الكريم , وهو جانب عظيم النفع , لا سيما في خضم هذا التطور العلمي الذي يشهده العالم في جميع المجالات , كما أنه من أبرز وسائل الدعوة إلى الإسلام في العصر الحالي .
3. يسعى هذا البحث إلى إبراز ما كان عليه علماء المسلمين من تقدم علمي ومعرفي , وكيفية تطويعهم لهذه العلوم في حدمة كتاب الله عز وجل .

إشكالية البحث :

تكمن إشكالية البحث في عدة مشاكل منها :

1. ما لمقصود بالتفسير العلمي , وما فائدته ؟
2. ماهي الآيات التي يتناولها التفسير العلمي ؟

المنهج المتبع :

يقتضي أن يكون المنهج المتبع في هذا البحث المنهج الاستقرائي ومن ثم المنهج التحليلي .

حدود الدراسة :

تمحورة هذه الدراسة في نطاق التفسير العلمي لبعض الآيات القرآنية التي تتعلق بتفسير بعض القضايا الكونية

وذللت البحث بالخاتمة , وبعض المصادر والمراجع التي اعتمدت عليه بعد الله سبحانه وتعالى .

المبحث الأول : مفهوم التفسير العلمي وتاريخه والفرق بينه وبين الاعجاز العلمي

لتحديد معني التفسير العلمي يجد بنا أن نبين معني التفسير , ومعني العلم , ثم تعريف التفسير العلمي , وبيان الفرق بينه وبين الأعجاز .

المطلب الأول : مفهوم التفسير العلمي

التفسير في اللغة : هو البيان والكشف , والايضاح والتبيين .

وفى الاصطلاح : " علم يعرف به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه , واستخراج أحكامه وحكمه , واستمد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات , ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ "

وأما المقصود بـ العلم في موضوع البحث فهو :

العلوم الكونية والمعارف والصنائع , وما جدّ ويجد في العالم من فنون ومعارف , كعلم الهندسة , والحساب , وعلم طبقات الأرض ... إلخ (أبو حجر , 19 , 20)

وبعد أن عرفنا معني التفسير والعلم صار من الممكن معرفة معني التفسير العلمي :

" التفسير الذي يحاول فيه المفسر عبارات القرآن في ضوء ما أثبت العلم , والكشف عن سر من أسراره إعجازه من حيث يتضمن هذه المعلومات العلمية الدقيقة التي لم يكن يعرفها البشر وقت نزول القرآن , فدل ذلك على أنه ليس من كلام البشر , ولكنه من عند الله " (أبو حجر , 66)

المطلب الثاني : الفرق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن

من أكثر الأسباب التي أدت إلى تباين المواقف حول التفسير العلمي قبولاً أو رداً الخلط بينه وبين الإعجاز العلمي , حتى في أوساط بعض المتخصصين في هذا المجال , بل أن منهم من يراها شيء واحداً .

فهل كل آية تتضمن إشارة علمية في قضية كونية أو طبية أو نحوهما تحمل إعجازاً علمية بالمعني الدقيق للإعجاز ؟

أن العلاقة بين مصطلحي التفسير والاعجاز العلمي يزيل خطاً منهجياً وقع فيه بعض المتخصصين , وكانوا فيه على طرفين , والصواب هو التوسط بينهما , فليس التفسير العلمي مرادفاً للإعجاز العلمي وإلا لاعتبرا شيئاً واجداً , كما أنهما ليسا منفصلين متابينن , بل بينهما عموماً وخصوصاً ودائرة أحدهما أوسع من الآخر .

فكل إعجاز علمي فهو يُعرف من خلال التفسير العلمي , وليس كل تفسير علمي قابلاً لأن يكون إعجازاً تقوم به الحجة على غير المسلمين .

إن تعريف الإعجاز بـ: " إظهار صدق الرسول صلى الله عليه وسلم مما حمله الوحى إليه من علم إلهي ثبت تحققه ويعجز البشر عن نسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى مصدر بشري في عصره " (الزاندي , العدد 40)

يدل على وجود فرق بينه وبين التفسير العلمي ويظهر هذا الفرق إذا ركزنا على أمرين :

الأول : إن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية هو التفسير العلمي , وأن استخدام هذا التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكزن القرآن كلام الله لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت هو الإعجاز العلمي فكأن التفسير العلمي وسيلة لغاية هي الإعجاز العلمي .

ثانيا : أن القرآن حجة الله على الانس والجن أجمعين , وجزء كبير من الثقلين من غير المسلمين , وغير المسلمين لا يقتنع بصدق النبوة بمجرد ورود بعض الإشارات العلمية في الآيات القرآنية التي يجتهد المفسرون في استخدمها لإيضاح المعني وهو ما يسمى بالتفسير العلمي . إنما يُحتج عليه بما يثبت قطعاً استحالة معرفة البشر له وقت نزول القرآن , ومنهم النبي صلى الله عليه وسلم , ثم يكشف الله للناس بعد ذلك من حقائق العلم التجريبي ما يكون مذكوراً في القرآن فهذا هو الإعجاز العلمي .

المطلب الثالث : تاريخه

بعد كثرت الفتوحات الإسلامية , واتسعت رقعة الإسلام ودخلت تحت لوائه أمم وشعوب لا تعرف العربية , اختلط المسلمون بهم , ولم يغلقوا دونهم منافذ التبادل الثقافي .

من هنا ادت الحاجة إلى ترجمة علوم هذه الأمم الداخلة الإسلام , فترجمت ونقحت في عهد الخلفية العباس هارون الرشيد وأبنه المأمون * (أبوحجر , 92)

وبما أن الفلسفة قديماً في العصور اليونانية والمسحية كانت أم العلوم والعلوم الكونية وعلوم الطب والهندسة وغيرها تدخل في إطار العلوم الطبيعة ثم الاعتماد على الفلسفة كمصدر أساسي في النهضة الفكرية عند المسلمين , وشهد علماء الإسلام للفلاسفة بتفوقهم في العلوم الطبيعة . قال ابن تيمية : " والخطأ فيما تقوله المتفلسفة في الإلهيات والنبوات والشرائع أعظم من خطأ المتكلمين , وأما فيما يقولونه في العلوم الطبيعة والرياضة , فقد يكون صواب المتفلسفة أكثر من رد عليهم من أهل الكلام . فأن أكثر كلام أهل الكلام في هذه الامور بلا علم ولا عقل ولا شرع " (ابن تيمية , 311)

ومن ناحية أخرى فأن التفسير العلمي لم تتضح معالمه , ولم يأخذ طابعه الحالي إلا في التفسير الحديث , أما في التفسير القديم , فقد كان وجوده ضمنياً , ولم يسمى أحد من المفسرين القدامى هذا الاسم ؛ وإنما كان يشمل استنباط أي علم من القرآن ـ كما تناوله الامام الرازي ـ ليشمل العلوم النظرية , مثل المنطق والفلسفة إلى جانب العلوم الطبيعة . (أبوحجر , 354)

فالمقصود بالتفسير ـ العلمي الحديث ـ العلم الطبيعي الذي يخضع للملاحظة والتجربة والاختبار وعلى هذا الاساس أضحت علوم الطبيعة الآت تتيح للمفسر التأمل والوصول إلى الغرض من عرض آيات الآفاق وإدراك ما انطوى فيها من دلائل الألوهية وتفصيلها بتلك العلوم .

وصار من الطبيعي أن يظهر في مجال الدراسات الإسلامية مبحث خاص من مباحث علوم القرآن , يعنى بدراسة الآيات الكونية , في إطار من توافق للحقائق العلمية مع ما أنبا به القرآن أو أشار إليه . (فؤاد , 703)

وأصبح الاتجاه إلى التفسير العلمي آخذاً في الريادة يوماً بعد يوم ويتدرج إلى مزاحمة اتجاهات التفسير الأخرى , حتى ليكاد يخلو له الميدان اليوم .

المبحث الثاني : أهمية التفسير العلمي والحاجة إليه

بدأت العلوم الطبيعة تأخذ مكانها في كتب التفسير وتمتزج به , وكان لذلك آثار كبيرة في التفسير العلمي وإبراز أهميته منها :

أولاً : المساعدة على زيادة فهم الآيات القرآنية , وتعميق هذا الفهم .

يقول الراغب الأصفهاني* : " إن القرآن وأن كان في الحقيقة هداية للبرية , فإنهم لن يتساووا في معرفته , وإنما يحيطون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم . فالبلغاء تُعرف من فصاحته , والفقهاء من أحكامه , وأهل الآثار من قصصه وقد علم أن الأنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه " (الاصفهاني , 10/1)

وكم من آية في القرآن مستها يد العلم , إلا أبانت أسرارها واظهرت إعجازها .

ثانياً : تعميق اليقين الإيماني عند المؤمنين

فالقرآن الكريم حافل بذكر آيات الله في خلقه , متخذاً من التفكير فيها مدخلاً رحيباً إلى الايمان الخالص بالله , عن طريق استشعار وحدانيته سبحانه وقدرته وبديع صنعه في المخلوقات . وفى القرآن أساليب بلاغية متنوعة في الدعوة والنظر في آيات الله في السموات والأرض , والشمس والقمر ومنازله , والنجوم والكواكب و .... إلخ كل هذا مما يوجهه القرآن الكريم لأولي اللباب الذين يعقلون ويتدبرون ويتفكرون . (فؤاد , 704)

وتفصيل القرآن في ذكر الكائنات والظواهر الكونية الكثيرة والمتنوعة يقود بلا شك إلى الاعتراف بالخالق والايمان به وعبادته وتعظيمه .

ثالثاً : دعوة غير المسلمين بالطرق العقلية والحكمية , وتوصيل الحقائق الإسلامية إليهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم , ومواكبة افكار الناس ومشاربهم في تفسير القرآن بما يشبع حاجتهم من ثقافات علمية وكونية , لأن المفسر لا يفسر لنفسه , وإنما يفسر لغيره . (أبوحجر , 98)

رابعاً : تحفيز المسلمين وتنشيط همهم في المجال العلمي

للأخذ بأسباب النهضة العلمية , وتعميق ما خطوبنا به في القرآن ؛ لاسيما وأهل عصرنا لا يذعنون بشيء مثل إذعانهم للعلم ومنهجه وبيانه ودلائله . (فؤاد , 708)

ومن إعجازه القرآن أن يكون قد ادَّخر من أوجه التحدي ما كان الله وحده يعلم .

أن البشرية ستصير إليه في الاتجاه العلمي . يقول الرافعي : " إن في ذكر الآيات الكونية والعلمية في القرآن دليلاً على إعجاز آخر , فهو يومئ إلى أن الزمن متجه في سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل . (الرافعي , 131)

المبحث الثالث : القضايا الكونية التي يرتكز عليها التفسير العلمي

سنذكر في هذا الجانب على ثلاث مسائل تتعلق بالقضايا الكونية وهي :

أصل الكون , وشكل الأرض كما تحدث عنها القرآن وأثبته العلم الحديث , وقضية الحياة على الكواكب الأخرى

المطلب الأول : أصل الكون

لقد شغلت مشكلة أصل الكون جهود كثير من رجال العلم والدين والفلسفة من جميع الأديان , لأن الكتب المقدسة لم تذكر من خلق العالم ولا في أية سنة . (الرافعي , 131)

ولكن حب الاستطلاع والمعرفة دفع بعض الباحثين في جميع العصور إلى تناول هذه القضية وإثارة الجدل حولها , ولكن من جانب آخر وهو المادة التي خلق منها العالم . أما قضية تاريخ وجوده فلم يستطيع أحد أن يزعم لنفسه أنه وصل فيها إلى تاريخ محدد مقبول .

فمثلاً عند (طاليس) وهو أول فيلسوف ظهر عند الاغريق (640 ق م) أن الكون كله نشأ من أصل واحد وهو الماء , وأن كل ما طرأ عليه من تغيرات وتحولت نجمت عنه وجود عناصر في الماء أثرت فيه وحولته إلى أشياء , فالصخور ما هي إلا ماء متجمد طال عليه الزمن فتحول إلى هذه الصخور .

والهواء ماء تبخر فتحول إليه , والسحاب بخار تكاثف , والنار ما هي إلا حرارة تولدت من احتكاك الأجسام التي تجمدت في الماء فكل شيء يرجع أصله إلى الماء .

ثم جاء من بعد طاليس (أنكسيماندر) وقال : " إن أصل الكون هو المبهم اللامتناهي (ويعني به الهواء أو الفراغ الذي ليس له حدود) ومن هذا للامتناهي خرجت السموات إلى أعلى والمحيط إلى أسفل , ومن المحيطات إذ تبخرت تحت الشمس خرج أول المخلوقات المائية الحية . ومن تطور النسل إلى الطيور والحيوانات حتي بلغ أخر خليقة أرضية ألا وهي الإنسان " (توماس , 90)

أما علماء الطبيعة فيرون أن أصل الكون نشأ من غاز ساخن فتخلخل ليملأ الفضاء ويحتوي على دقائق المادة ويتحرك باستمرار , وقد اعترته في قديم الزمن هزات قوية واضطرابات شديدة جزأت هذا الغاز أو القسم الأكبر منه إلى قطع من السحب المتكاثفة , وانتشر الباقي في الفضاء .

يرى علماء الفلك أن السيارات تكونت من الشمس , إلا أنهم اختلفوا في كيفية نشوئها , فمنهم يرى أن نشوء السيارات كان نتيجة لسرعة دورانها مما سبب انفصام قطع غازية منها كأقراص العجين بتأثر القوة المركزية الدافعة ثم أخذت هذه الأقراص تتكاثف وتتقارب مع بعضها البعض وتدور حوله أمها الشمس .

وهذه المحاولات في تفسير أصل الكون لها نظائرها في بعض كتب التفسير القديمة . فقد نقل الزمخشري* عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَان﴾ (فصلت , 11)

قيل : كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء , فأخرج من الماء دخان فارتفع فوق الماء وعلا عليه , فأيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين , ثم خلق السماء من الدحان المرتفع ... وقيل خلق السموات والأرض وما فيهما في يومين الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم , وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة . (الزمخشري , 285/2)

ولم يخلو الامر من بعض الخرافات والاسرائيليات والاساطير في كتب التفسير في تفسير أصل الكون .

ويرى بعض الباحثين أنه قد يكون من المفيد تخليص كتب التفسير من هذه الاساطير ومحاولة كتابة تفسير علمي صحيح .

أما تلخيص بعض كتب التفسير من الإسرائيليات فقد قام بعض العلماء بتخليص كتب التفسير من الشوائب العالقة بها , منهم : محمد حسن الذهبي* في كتابه (الإسرائيليات في التفسير والحديث) وغيره من العلماء .

والشق الثاني وهو كتابة تفسير علمي , فقد يكون هذا التفسير مؤقتاً إلى أن تخرج حقائق أخرى تغير نظرة الناس إلى الكون ويكون بتفسير بعض الآيات القرآنية المتعلق بالكون يأخذ الطابع الفكري للعصر .

وقد أخذ بعض المفسرين المحدثين ببعض هذه النظريات فيرون أن مجموع السموات والأرض كانت مادة واحدة متصلا بعض أجزائها ببعض على كونه ذرات غازية كالدخان .

ولما كان ذلك الفتق في الأجرام انفصل جرم الأرض على جرم السماء وصارت الأرض قطعة مستقله ملتهبة , وكانت مادة (الاكسجين والايدروجين) تتبخر في الأرض بما فيها الحرارة فتلاقي في الجو برودة تجعلها ماء فينزل على الأرض فيبرد من حرارتها , وما زال كذلك حتى صارت الأرض كلها ماء وتكونت بعد ذلك اليابسة منه , وخرج النبات والحيوان وكل شيء حي من الماء . (نوفل , 140)

كما نجد بعض المفسرين يربط بين بحوث العلماء التي تهتم بقضية خلق الكون وبين آيات القرآن حيث فسرت الآية الكريمة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (الأنبياء , 30)

في ضوء نظرية (السديم) الذي انفصل إلى أجزاء مكوناً الشمس والأرض والنجوم , والذي ثبت البحوث أنه غاز عالق به مواد صلبة ويقولون : " اللفظ الوحيد الذي يمكن إطلاقه علميا على السديم هو الدخان " (نوفل , 162)

" وإن الآية الكريمة من عجائب الاعجاز العلمي في القرآن لأنها سبقت علماء الفلك المحدثين إلى ما قرروه من أن الكون كله قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه كان كياناً سديماً غير متميز بعضه من بعض ثم أخذ تتميز ويتطور لا يدرون بالضبط كيف وإن نبوه إلى فعل الجاذبية " (الغمرواي , 192)

إن القرآن الكريم في أسلوبه المعجز وفي اشاراته للطبيعة عن نشأة الكون وأصل الوجود قد وضع يد الأنسان على مفاتيح الحلول ليستفيد منها بحسب طاقته الإنسانية التي أودعها الله فيه فعليه أن يبذل جهده ويستفرغ إمكانيته ويستعمل ملكاته ومواهبه العقلية والفطرية بنفسه ليتوصل إلى الحلول الصحيحة والنتائج المفيدة , والاطلاع على أسرار الكون ليعبد الله عن علم ويمجده عن معرفة .

وها هو القرآن يرغب في سبر الأغوار وتقصي الاسرار لمعرفة الصورة الصحيحة التي وجد عليه الكون لأول مرة فيأمرنا بالسير في الأرض والتأمل الدقيق فيقول : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت , 19)

ولكنه في الوقت نفسه لا يحيلنا على مصادرنا البشرية المحدودة وحدها وهي غير كافية ولا وافية , وإنما يعرض علينا نموذجاً من نماذج هذا الخلق الأول مشفوعاً بالأرقام مقروناً بذكر الأيام لميلاد الأرض وجبالها الراسيات وما فيها من معادن والخيرات ثم السموات السبع وهي دخان وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت , 92)

وأخيراً فأن قضية بد الحلق تعرض لها العلماء المؤمنون وغير المؤمنون قديماً وحديثاً وليس حديثهم في ذلك بالغاً مبلغ اليقين مهما تكن الثقة بقوة عقولهم وسلامة تفكيرهم وتوافر قدرتهم على البحث والاستقصاء . لأنه ليست هناك وسائل علمية تثبت هذا ثبوتاً قاطعاً . وكل ما ذكروه في هذا الشأن لا يزيد على أنه ضرب في مجالات الفروض أو في التحليق في أجواء المجهول .

ومع أن المنصف لا يستطيع أن يجحد ما بذلوا من جهد , هو كذلك لا يستطيع أن يطمئن إلى ما ظفروا به من نتائج , وسند المسلم في ذلك قول الحق : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (الكهف , 50) (الباقوري , 257)

المطلب الثانيّ : شكل الأرض

من القضايا التي يتناولها أصحاب الاتجاه العلمي في التفسير شكل الأرض من حيث الكروية وعدمها , والحركة محاولين دائماً , أن يوفقوا بين ما جاءت به آيات القرآن عندما تصف الأرض أو تتحدث عنها , وبين ما يقوله علماء الهيئة ويثبته العلم الحديث .

فقد قال علماء الهيئة : الأرض كروية الشكل وإنها متحركة وأقاموا على ذلك دلائلهم المعلومة في كتبهم , ومثلوا ذلك بما إذا مشت ذبابة على (بطيخة) معلقة فهل تنتهي إلى حافة وكذلك الأرض الكروية الشكل السابحة في الفضاء , ليس لها حافة تنتهي إليها من يجوب سطحها .

كما ذهبوا أن لها حركة يومية يترتب عليه الليل والنهار وسنوية يترتب عليها الفصول الأربعة . وعندما تقدم العلم في العصر الحديث بمراصده وآلاته قرر أنها ليست كروية تامة التكوير , بل هي منبعجة عند خط الاستواء ومفلطحة عند القطبين , أي أنها بيضاوية الشكل , وهذا المعني تفيده لفظة (دحاها) التي وصفها القرآن بها على بعض معانيها .

ويرى بعض الباحثين أن المفسرين لم يفهموا هذه اللفظة ذلك المعني الذي قصد إليه القرآن ويلتمس لهم العذر لأنه ما كان يخطر ببالهم أن الأرض التي يسرون عليها صباح مساء مبسوطة وهي مدحوة مثل البيضة . فيقولون عند تفسيرهم للآية (دحاها) أي بسطها .

أما تفسير هذه اللفظة في قواميس اللغة فقد لا تجد لها معني أو إشارة تدل عليها من قريب أو بعيد . فمثلاً في لسان العرب : دحا البطن : عظم واسترسل إلى الأسفل وعند غيره مبيض النعام في الرمل ومنزل القمر

فكل هذه المعاني اللغوية لا تدل على معني (البسط) ولكنها تدل على أشياء مستديرة ولعل قوله تعالي : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر , 5) إشارة إلى كرويتها بكروية جوها الذي يشغله ويتعاوده الليل والنهار على التجدد على كل بقعة من بقاع الأرض . والتكوير : اللف واللي يقال : ((كاد العمامة على رأسه وكورها)) (الزمخشري , 259/2)

كما أن التكوير لا يكتمل معناها إلا مع كروية الأرض وحركته اليومية إذ لا يكون التكوير واضحاً لو أننا تصورنا الأرض مبسوطة كما كان يرى الاقدمين لأن قوله تعالي : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج , 61) وقوله تعالي : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (الأعراف , 59) يتجلى فيها كلها معني التلاحق , وأن التكوير كل منهما على الآخر يجري في آن واحد ولا يتصور هذا المعني مع تصور الأرض مبسوطة ساكنة

كما أن في الشريعة دلائل كثيرة تدل على كرويتها , منه اعتراف الأئمة باختلاف المطالع , فإن الصبح في بعض البلاد يوافق المساء في بلاد أخرى , واختلاف الأهلة في كل قطر من الأقطار .

فبعض الناس فهم قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (نوح , 19) وقوله تعالي : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل , 15) ما ينفي كروية الأرض ودورانها , مخالفاً ما أثبته العلم وأقام أدلته عليه .

مع أن الفهم الدقيق للآيتين لا يدل على هذا الادعاء , فإن البسط ـ كما تقول المعاجم اللغوية ـ نقيض القبض (ابن منظور , 29/9) لا ضد الاستدارة والكروية حتي تنفيها الآية التي وردت في سياق نعمة الله على عباده في تذليل الأرض بسهولها وفجاجها .

فقد تقدم لنا الشيخ محمد بخيت المطيعي* استدل على حركة الأرض بآيات من القرآن وأتى بعدة آيات مثل قوله تعالي : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ (الملك , 15) وقوله تعالي : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء , 33) وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النمل , 88)

ومنهم من يرى إن القرآن فيه دلالات متعددة على حركة الأرض جاءت عن طريق الإشارة لا عن صريح العبارة , فلو أن القرآن صارحهم بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه , فكان من الحكمة البالغة والاعجاز البلاغي في الاسلوب أن ينبه الناس في كتاب الله إلى آيته سبحانه في حركة الأرض حول محورها وحركته حول الشمس بمختلف الإشارات منها قوله تعالي : ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ (المدثر , 33) وقوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (التكوير , 17) ويقول : إن هذه أوصاف تقتضي الحركة وهي كناية عجيبة عن حركة الأرض لا تفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هي الأصل في جو الأرض كما يدل على ذلك قوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف , 54)

وهنالك من العلماء من يرى أن تطبيق علم الفلك القديم والحديث على ما جاء في القرآن الكريم يعتبر نهجاً غير محمود على كلام الله تعالي , ذلك لأن القرآن إنما جاء بالقواعد العامة والنواميس الكلية التي لا يعتريها تبديل ولا تحوير . فالساعي في تطبيق العلوم الفلكية على آياته الكريمة يكون ملوماً . (وجدي , 490)

ويكفي القرآن أنه لا توجد آية من آياته تتناقض مع ما ثبت أو يثبت من الحقائق الفلكية .

المطلب الثالث : قضية الحياة على الكواكب الأخرى غير الأرض

من القضايا التي شغلت أصحاب الاتجاه العلمي في التفسير قضية الحياة على الكواكب الأخرى . ولم يصل العلماء حتى اليوم إلى شيء يعول عليه حول هذه القضية .

ومن المسلَّم به أنه حيثما وجدت ظروف مناسبة للحياة فهناك حياة , وليس بشرط أن تكون على شكل هذه الحياة التي نعدها على الأرض , فمن الجائز جداً أن تكون على صورة لا ندركها .

فمن الممكن أن توجد كائنات عاقلة مثل الجنس البشري أو غيره على أي كوكب تكون ظروفه ملائمة لوجود الحياة عليه , وهذه من الناحية البحثية العقلية .

وقد يكون من المفيد أن نبحث عن هذه القضية من ناحيتين : الناحية العلمية والناحية الدينية لنرى ما وصلت إليه بحوث العلماء بالنسبة للناحية الأولى , وما قاله المفسرون من قدامى ومحدثين بالنسبة للناحية الثانية .

1. الناحية العلمية :

أقام علماء الفلك والطبيعة المراصد للكواكب وقاموا بالرحلات الفضائية , وهبط بعضهم على سطح القمر , وهم يحاولون إنشاء محطة فضاء لينطلقوا إلى الكواكب الأخرى مثل الزهرة والمريخ لمعرفة تكوينها وصلاحية الحياة عليهما بعد الدراسة النظرية .

إن علماء الفضاء والفلك ى يزالون مجدّين في البحث يحاولون استخدم سفن الفضاء في الاتصال ببعض الكواكب للكشف عن أسرارها ومعرفة الكائنات الحية التي تعيش فيها , فأكثر هؤلاء العلماء مؤمنون بأن في الكواكب أحياء ما دامت مقومات الحية موجودة ومتوفرة كلها أو بعضها . لذلك يبحث العلماء الآن عن مقومات الحياة في بعض الكواكب بإجراء التجارب المختلفة .

وقد أسفرت نتائج البحث التي قاموا بها على ما يلي :

القمر : دلت البحوث أن جوه خال من مقومات الحياة المناسبة للأحياء لأنه خالي من الماء والهواء الازمين للحياة ولكنه لا يخلو من المعادن والجبال والأودية .

عطارد : لا حياة فيه قطعاً لأنه لا جو فيه له , ولصغر حجمه لا يستطيع جلب الهواء والاحتفاظ به .

المشتري : لا يصلح للحياة لتميع غازاته ولشدة الضغط عليه , ويشترك معه في هذه الصفات زحل .

الزهرة والمريخ : بيئتهما صالحة لسكنى الأحياء على سطحها , والمريخ خاصة ليس فيه ما يمنع من كونه داراً للأحياء , وتوجد حياة نباتية على المريخ .

ومما يتضح أن الزهرة والمريخ هما أصلح الكواكب لسكنى الأحياء , وليس هناك مانع من وجود حياة فيهما . (أبو خليل , 140)

هذا ما قاله العلم واكده العلماء , ولا شك أن العلم استنتج هذا استنتاجاً من مقابلة الأشباه بالأشباه والامثال بالأمثال , وإلا فالعلماء اليوم لم يتوصلوا بوسائلهم العلمية الحاضرة إلى مشاهدة هذه الأحياء . (الخطيب , 230)

2. الناحية الدينية :

يقول كثير من المفسرين : إن كثير من الآيات القرآنية تشير إلى أن السموات حياة وأحياء ـ وهم يقصدون غير الملائكة . ومن هذه الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل , 49) فإنه خص الملائكة بالذكر لفضلهم أولاً , وللإشارة إلى وجود مخلوقات أخرى غير الملائكة ثانياً . وفى سورة الرحمن ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن , 27) وهذه الآية تنطق هي الأخرى بأن السموات والأرض أحياء عقلاء يسألون ربهم لاحتياجهم إليه في كل شيء .

بقول الزمخشري : " أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالدبيب كما يوصف به الأناسي أو يخلق الله تعالى في السموات حيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض بعيد عن الأفهام لكونه على خلاف العرف العام , ولأن الشيء إنما يكون آية إذا كان معلوماً ظاهراً مكشوفاً " (الزمخشري , 2/12)

أما شهاب الدين الألوسي* فيرجح ما يقول به علماء الفلك والأرصاد , ويجيب بقوله : إن آية البقرة لما كانت كلاماً مع الفهم والمسترشد والمعاند , جي فيه بما هو معروف عند الكل وهو بث الدواب في الأرض , وأما ما في سورة الشورى فجئ فيه به مدمجاً مختصراً لما تكرر في القرآن ولا سيما في هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقيل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (الشورى , 29) مؤثراً على لفظ الخلق ليدل على كمال القدرة , ويبين بقوله تعالى : ﴿مِنْ دَابَّةٍ ﴾ تعميماً وتغليباً لغير ذوي العلم في السموات والأرض تحقيقاً للمخلوقية , فقد ثبت في صحاح الأحاديث ما يدل على وجود الدواب في السماء من مراكب أهل الجنة وغيرها , وكذلك على ما يدل على وجود الملائكة كالأوعال . بل لا يبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتي وأحوال مختلفة لا نعلمها , ولم يذكر في الاخبار شيء منها فقد قال تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل , 8)

وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظارتهم مخلوقات على جرم القمر لكنهم لم يتحققوا أمرها لنقص ما في آلاتهم , على ما يدعون . ونفي ذلك ليس من المعلوم من الدين بضرورة ليضر القول به .

والقائلون بوجود أحياء على الكوكب الأرضي وبخاصة المحدثين منهم , يرتبون عليه قولهم : إن الآية إلى جانب إشارتها إلى ذلك تقرر إمكان اتصال أهل الأرض بسكان الكواكب الأخرى عندما يحين الوقت وهو عين ما يوجه إليه العلماء اهتمامهم اليوم , ويقولون : قد يكون الجمع واتصال في الدنيا بواسطة سفن الفضاء أو على متن أمواج الأثير , وهو أكثر احتمالاً .

ولكن عند التأمل فيما تفيده الآية والآيات الأخرى التي تفيد نفس المعني الجمع يوم القيامة للحساب بعد البعث . فمن أسماء القيامة (يوم الجمع) وقد ورد في نفس هذه السورة قول الله تعالى : ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى , 5) وعلى ذلك فالآية لها نظائر كثيرة وردت في القرآن الكريم وكأنها تفيد الجمع يوم القيامة قال تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (المرسلات , 38) وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (آل عمران , 38)

وعلى هذا فالمقصود بالجمع إنما هو الجمع بين المخلوقات في الآخرة لا في الدنيا وأن معني الآية أن هذه الأحياء المبثوثة التي لا يعلم هذه الأحياء الأنسان منها إلا اليسير ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور , هذه الأحياء التي تدب في السموات والأرض يجمعها الله تعالى حيث يشاء لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب .

ثم ما أجمل التعبير القرآني الذي قابل بين مشهدين : مشهد البث ومشهد الجمع , ولو كان ما بفيد الجمع في الدنيا لجاء التعبير بصورة وهو على الجمع بينهم أو اجتماعهم . أما وقد جاء التعبير القرآني هكذا على جمعهم الذي يفيد ـ فيما أعتقد ـ جمعاً لا خيار فيه ولا حيلة لهم في الفرار منه , فإنه يكاد يكون نصاً في الجمع يوم القيامة أي حشرهم بعد البعث للحساب العادل .

الخاتمة :

وبعد , فهذه بعض ما جاء في التفسير العلمي , وما قاله أصحابه قديماً وحديثاً , حاولت أن أدل القارئ على بعض من صور التفسير العلمي لبعض القضايا الكونية , وأن أضع صورة لمن يريد لمزيد من الدراسة والبحث .

وهذا ما جال حواله البحث , وأسفرت دراسته عن النتائج الأتية :

1. إن التفسير العلمي هو التفسير الذي يحاول فيه المفسر تطبيق ما قال به العلم على ما جاء به القرآن , بهدف إثبات وجه من وجوه الإعجاز القرآن الكريم , بهدف إثبات أنه لا تناقض بين العلم والدين .
2. إن التفسير العلمي ما هو إلا فهم للآية أو الآيات بوجه من وجوه الدلالة على ضوء ما أثبته العلم . وليس معني هذا أن النص القرآني لا يفهم إلا على هذا الوجه من الوجوه .
3. إن ما يستفاد من الكشوفات العلمية في تفسير نصوص القرآن هو توسيع مدلولها كلما أثبت العلم جديداً مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله في الأنفس والآفاق .
4. ليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية بحال من الأحوال . وما يبدو من ذلك لبعض الناس هو ناتج من خطأ في فهم النص القرآني أو من خطأ في المعرفة العلمية نسبت إلى الحقيقة العلمية ما ليس منها .
5. يجب التصديق بأن ما جد في هذا العصر من إدراك علمي لآيات القرآن ليس معناه أن حقائق القرآن قد تغيرت أو تطورت في ذاتها ـ معاذ الله ـ وإنما الذي تغير ويتغير ويتطور هو عقل الإنسان الذي يتسع إذا استنار , وفكره إذا استقام مع كثرة البحث والدرس والتجريب فيبدو له القرآن على حقيقته الأصلية الخالدة فلا مبدل لكلمات الله .

المصادروالمراجع :

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
2. أضواء من القرآن على الأنسان ونشأة الكون والحياة , عبدالغني الخطيب , دار الفتح بدمشق , 1970 م .
3. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية , مصطفي صادق الرافعي , ط4 , 1940 م .
4. أعلام الفلاسفة كيف تفهمهم , ترجمة متري آمين , تقديم نجيب محمود , القاهرة 1964 م .
5. الأنسان بين العلم والدين , شوقي أبو خليل , مطبعة الأنشاء , دمشق 1970 م .
6. الإعجاز العلمي للقرآن , أحمد فؤاد باشا ,
7. الإسلام في عصر العلم , محمد أحمد الغمرواي , ط1 , 1973 م .
8. الإسلام في عصر العلم , محمد فريد وجدي , ط3 , 1967 م .
9. بين العلم والدين , عبدالرزاق نوفل , مكتبة وهبة , ط1 .
10. التفسير العلمي للقرآن في الميزان , أحمد عمر أبوحجر , دار الكتب الوطنية , ط2 , 2000 م .
11. مقدمة في أصول التفسير , ابن تيمية , ط2 , 1972 م .
12. المفردات في غريب القرآن , الراغب الاصفهاني , مصطفى الحلبي , 1324 هـ .

13. الكشاف في حقائق التنزيل وعيون التأويل , محمود عبدالله الزمخشري , طبعة بولاق .
14. لسان العرب , ابن منظور , طبعة بيروت , 1955 م .
15. مجلة المسلمون , الزائدي , العدد 40 , 1406 هـ .

الأعلام :

1. أبو عيسى بْن هارون الرشيد بْن محمد المهديّ بْن المنصور العبّاسيّ الأمير. واسمه محمد، [الوفاة: 201 - 210 هـ] ولي إمرة الكوفة سنة أربعٍ ومائتين، وحجّ بالنّاس سنة سبعٍ، وكان موصوفًا بحُسْن الصّورة، وكمال الظرف، وله أدب وشعر جيد , تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام , بشارة معروف , دار الغرب الإسلامي , ط1 , 2003 م , 237/5 .
2. المفضل بن محمد الأصبهانيّ أبو القاسم الراغب , صاحب المصنفات، كان في أوائل المائة الخامسة, له: «مفردات القرآن»، و «أفانين البلاغة»، و «المحاضرات»، و «الذريعة إلى مكارم الشريعة» وغير ذلك طبقات المفسرين للداودي , دار الكتب العلمية بيروت , 329/2 .
3. محمد بن عمر بن محمد بن أحمد العلامة أبو القاسم الزمخشري النحوي اللغوي المعتزلي، المفسّر، يلقب جار الله، لأنه جاور بمكة زمانا , ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر قرية من قرى خوارزم , وقدم بغداد فسمع من أبي الخطاب بن البطر، وأبي سعد الشقاني، وشيخ الإسلام أبي منصور الحارثي وجماعة , طبقات المفسرين للداودي , 314/2 .
4. الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (ت 748 هـ)، ويُعَدُّ من أهم كتب التراجم في التراث الإسلامي , جمع فيه المؤلف سير أعلام المسلمين عبر التاريخ الإسلامي حتى عصره، ورتب التراجم ترتيباً زمنياً بحسب الطبقات، بحيث يشكّل مرجعاً واسعاً في تراجم العلماء والأمراء والأدباء الزهاد طبقات المفسرين للداودي , 320/2 .
5. محمد بخيت بن حسن المطيعي , (1354 هـ) فقيه ومفسر وفيلسوف أصولي , مفتي الديار المصرية وواحد من الأعلام وأبرز فقهاء القرن العشرين وعلماء الأزهر , ترك مؤلفات عدة في علم الفقه , شبكة الانترنت , ويكيبيديا الموسوعة الحرة .
6. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني فقيه ومفسر ومحدث. ولد في بغداد، وتلقى العلوم على شيوخ عصره، وكان شديد الحرص على التعلم ذكياً فطنًا، لا يكاد ينسى شيئًا سمعه، حتى صار إمام عصره بلا منازع. اشتغل بالتأليف والتدريس في سن مبكرة، له عدة كتب قيّمة، أبرزها تفسيره الكبير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني الذي استغرق تأليفه خمس عشرة سنة، ويُعدُّ هذا التفسير موسوعة كبيرة جمع فيه الألوسي خلاصة علم المتقدمين في التفسير، وقد ذكر فيه بعض إشارات الصوفية في التفسير وفي الألوسي في ذي القعدة في بغداد ودُفن فيها , طبقات المفسرين للداودي , 187/1 .